

مفهوم الحضارة ومكوناتها في ضوء المقاربة الحضارية؛

إسهامات مالك بن نبي

الملخص

يقدم هذا البحث تحليلاً لإسهامات مالك بن نبي في تطوير "المقاربة الحضارية" في الفكر الإسلامي المعاصر، مُعرجاً على بيان مفهوم "الحضارة" الذي تفرّد به، وميّز فكره وأطروحاته. وينطلق البحث من تساؤلٍ محوريٍّ هو: إلى أيّ مدى تُسهم جهود مالك بن نبي في بناء نسق منظوميٍّ للتفكير الحضاريّ الإسلاميّ؟ ويحاول البحث تسليط الضوء على جانبٍ مُهمٍّ من جهوده في تطوير هذا الفكر التكامليّ، بالإضافة إلى توضيح تميز مفهومه للحضارة وأهميته العمليّة. واتبع البحث في هذا المسعى المنهج الاستقرائيّ، وتحليل النصوص المتعمّق لاستخلاص التوجّهات الكبرى لهذه المقاربة ومبادئها الرئيسيّة. وخُصّصَ إلى أنّ مالك بن نبي قدّم تصوّراً منهجياً للمقاربة الحضاريّة، مكّنته من تقديم تحليل عميقٍ ومتقدّمٍ لوضع الأمة الحضاريّ، مُوصياً بضرورة أن يُعمّق المشتغلون بالفكر الحضاري دراستهم وتطويرهم لمنظومة مالك بن نبي الحضارية، وتطبيقاتها العملية الملائمة لواقعنا المعاصر.

الكلمات المفتاحية: الحضارة- المقاربة الحضارية - الإسهامات- مالك بن نبي

Abstract

This paper presents an analysis of the contributions of Malik Bennabi in developing the "Civilisational Approach" in contemporary Islamic Thought. Furthermore, it explains the concept of "civilisation" that was unique to him, and distinguished his ideas and contributions. The paper starts from a central question: to what extent does Malik Bennabi's efforts contribute to building a systemic of analysis of Islamic civilisation thinking? This paper aims to shed light on an important aspect of Bennabi's contributions to the development of this integrative thought. Additionally, it clarifies the uniqueness of his concept of civilisation and its practical implication. In this endeavor, the paper followed the inductive approach and in-depth textual analysis to extract the major foundations of this approach and its main principles. The paper concluded that Bennabi presented a systematic conception of the civilisational approach, which enabled him to present a deep and advanced analysis of the situation of the Islamic society. The paper recommends that more efforts be undertaken by scholars to deepen, develop and implement what is relevant of Bennab's civilisational approach in our contemporary context.

Keywords: Civilisation- Civilisational Approach- Contributions- Malik Bennabi

مقدّمة

يتناول هذا البحث بالتحليل مفهوم الحضارة ومكوّناته في ضوء "المقاربة الحضاريّة" وفقما تطوّرت في فكر مالك بن نبي (1905-1973م)، مؤكّداً فرادة منهجه بين المفكرين الذين تعاطوا مع سؤال النهضة والتحضّر بشكل منهجيّ نسقيّ. وتتسم جهوده الفكرية بنوع من التميّز، ولا سيّما في تناوله لمشكلة الحضارة الإسلاميّة ومسيرتها: من الانطلاق إلى مرحلة القوّة والفعالية الحضاريّة النموذجيّة، ومنها إلى الضعف والتخلف والتراجع الحضاري. وهناك عوامل متعدّدة تُفسّر هذا التميّز والعُمق الذي اتسمت به أطروحاته؛ من بينها: تطوُّره وتبنيّه لـ"المقاربة الحضاريّة" في الفهم والتحليل والتفسير والتوجيه لمسيرة هذه الحضارة من القوّة إلى الضعف، ومن ثمّ يحاول البحث الإجابة عن سؤال: ما المقاربة الحضاريّة؟ وكيف وظّفها مالك بن نبي في دراسة الحضارة الإسلاميّة ومسيرتها؟

ويهدف البحث إلى تسليط الضوء على جانب مهم من إسهامات ابن نبي في تطوير الفكر الحضاريّ الإسلاميّ المعاصر من خلال تطويره للمقاربة الحضارية، بالإضافة إلى توضيح تميز مفهومه للحضارة وعمليّته من خلال تقديم تصوّر متكامل للمقاربة، تجعلها في متناول الباحثين الراغبين في فهم فكره وتطوُّره. وتوسّل البحث في هذا المسعى بالمنهج الاستقرائيّ، وتحليل النصوص المتعمّق؛ لاستخلاص التوجّهات الكبرى لهذه المقاربة ومفرداتها الرئيسيّة.

وكما هو معلوم عند المشتغلين بشؤون النهضة، والتجديد والإحياء الإسلاميّ المعاصر، بأنّ مسألة الرؤية والمنهج من أهم القضايا الملحّة التي ينبغي أن تستقر وتتوطّن في فكر الأمة ووَعِيها، وبدون ذلك فإنّ الأمل في إعادة الأمة الإسلاميّة إلى حيويّتها الحضاريّة سيأخذ مساراتٍ متعددة متشعّبة قد لا توصل إلى الغايات العليا المنشودة. ولما كان موضوع المنهج التكامليّ النسقيّ بهذه القيمة المعرفيّة والتحليليّة والتطبيقيّة في سياق جهود النهوض والتنمية، فإنّ إعطاءها الأولويّة أصبح من الضروريات في وعينا المعاصر، وفي محاولاتنا التجديديّة.

ومن ثمّ يؤكّد البحث بأنه بدون تطوير مناهج التفكير الحضاريّ المنظوميّ وقدراته، واستخدام أدوات التحليل الحضاري، فإنّه سيكون من الصعب فهم مشكلات العالم الإسلاميّ المتعدّدة، ومعالجتها بالطريقة المنهجية العلميّة المناسبة. ومما لا شك فيه أنّ "المقاربة الحضاريّة" أو "الرؤية الحضاريّة" في التفكير تعدّ رؤية متكاملة ومتوازنة وشاملة، تعالج القضايا والمشكلات الاجتماعيّة والثقافيّة بطريقة أكثر تكاملاً

وعِلْمِيَّة، وتستخدم أدوات ومناهج مستقاة من مختلف المناهج والمقاربات الاجتماعية والإنسانية، وتستفيد من توجيهات الدين والقيم، وتعمل على تقديم تحليلات شمولية لظاهرة التحضر والتغيير الاجتماعي.

وقد أسهم الكثير من علماء ومفكري الإسلام، القدماء والمعاصرين، في تطوير هذه المقاربة الحضارية. وفي هذا السياق يمكن ذكر جهود عبد الرحمن بن خلدون من القدماء، وجهود مالك بن نبي، والطيب برغوث من المعاصرين. ويهدف البحث إلى إبراز بعض أطروحات مالك بن نبي في تطوير "المقاربة الحضارية"، وتطبيقها في تحليل مشكلات العالم الإسلامي، واقتراح الحلول المنهجية العلمية لها من خلال استخدام المنهج الاستقرائي، وتحليل النصوص؛ للوصول إلى عمق أفكاره وآرائه.

وتجدر الإشارة في هذا المقام إلى أنّ هناك مقاربات متعددة في دراسة قضايا النهوض والتجديد وتناولها، وحلّ مشكلات العالم الإسلامي، منها: المقاربة السياسية، والمقاربة الاجتماعية، والمقاربة الفكرية، والمقاربة التربوية، والمقاربة الاقتصادية، وغيرها من المقاربات المتناثرة في أدبيات الحركات النهضوية والتجديدية، والإحيائية، والإصلاحية. وقد أثبتت العديد من الدراسات والتحليلات العلمية أنّ واحدة من نقائص هذه المقاربات: رؤيتها التجزيئية والتبعيضية لعملية "النهوض"؛ بحيث ظهرت رؤى أحادية تركز على مجال واحد من مجالات العملية النهضوية ومتطلباتها، ونتيجة لهذا التجزؤ لعملية النهوض تخلف الجهد النهضوي والتجديدي عن المرحلة، وعن التحديات الكبرى للعالم الإسلامي اليوم.

بناءً على هذه المقدمات الأساسية، يتناول البحث مسألة الحضارة، مبيّناً أهمية المقاربة الحضارية عند مالك بن نبي، من خلال تقسيم الورقة إلى: مقدّمة، وثلاثة مباحث رئيسة، وخاتمة. وقد ركّزت المباحث على النقاط الآتية:

أولاً: الإطار العامّ لدراسة المقاربة الحضارية عند مالك بن نبي

ثانياً: المقاربة الحضارية وتعدّد مداخل تناول الحضارة

ثالثاً: الحضارة بوصفها وحدة لتحليل مشكلات المجتمع

أولاً: الإطار العام لدراسة المقاربة الحضارية عند مالك بن نبي

يقدم هذا الإطار العام مدخلاً للتعاطي مع مفهوم المقاربة الحضارية الذي يعدّ أساسياً في فهم فكر مالك بن نبي ومنهجه الحضاري، واقتراح شكل توضيحيّ عامّ يُبيّن طبيعة المقاربة الحضاريّة ومكوّناتها عند ابن نبي. ويساعد هذا الشكل الأخير في تبيين القيمة المعرفيّة والمنهجية للجهد الذي قدّمه هذا المفكّر في وقت مبكر من تطوّر الفكر الإسلامي المعاصر في القرن العشرين.

1- المقاربة الحضارية: محاولة للتعريف

تعبّر كلمة "المقاربة" بصورة عامّة عن أسلوبٍ منهجيّ لمعالجة قضية أو ظاهرة معيّنة. وعادة ما يُنظر إليها على أنّها نوع من التفكير المنظم والمنهجي الذي يسمح بفهم موضوع أو قضية ما تكون قيد الدراسة وتحليلها وتفسيرها وتوجيهها. ومفردة "المقاربة" هي في الأساس عبارة عن بنية، أو تصوّر، أو نوع من التأطير المنهجي، يوضّح طريقة أو أسلوب أو عمليّة تناول الظواهر بالدراسة المنظمة. ومن الناحية المنهجية يتطلّب الأمر أن يكون لأيّ مقارنة علمية إطار تنظيريّ، وأهداف، ومناهج، وأدوات تحليلية وتطبيقات عمليّة. ومن هنا يمكن القول: إنّ التفكير عن طريق "المقاربات" من أهمّ أنواع الطرق والمناهج التي يستخدمها العلماء والمفكّرون في مختلف العلوم الإنسانيّة والاجتماعيّة والسلوكيّة وغيرها في تناول القضايا بشكل أكثر علميّة.

وتردّ هذه المفردة في قواميس اللغة العربيّة المتعددة بمعانٍ كثيرة، وأقرب هذه المعاني إلى هذه المفردة هو ما ذكر في "معجم المعاني الجامع": "مُقَارَب: اسم مصدر قَارَبَ، مُقَارَبَةٌ نَصٌّ: النَّظَرُ فِيهِ، تَحْلِيلُهُ لِمَعْرِفَةِ أَوْجُهِهِ... مُقَارَبَةٌ، فَهُوَ مُقَارِبٌ، وَالْمَفْعُولُ: مُقَارَبٌ... قَارَبَ نَصًّا أَدْبِيًّا: تَنَاوَلَهُ بِالتَّحْلِيلِ وَالتَّفْسِيرِ...". (معجم المعاني الجامع، موقع إلكتروني) وورد كذلك مفهوم "مقاربة مندجّة للمجال" بمعنى "منهجية التعامل مع المجال الجغرافي على مستوى تدييره واستعماله بشكلٍ يُراعي الانسجام والتفاعل بين مختلف مكوّناته. وكذلك معنى المعجم "المقاربة النسقيّة" على أنّها: "منهجية لمعالجة موضوع، أو دراسة ظاهرة أو مشكلة ما بشكلٍ يُبرزُ الترابط والتفاعل بين مختلف مكوّناتها (عناصرها)". (معجم المعاني الجامع، موقع إلكتروني) وفي السياق نفسه ذهب صاحبُ معجم (الرائد)

إلى أنّ "المقاربة" تعني: "معالجة موضوع أو دراسة ظاهرة أو مشكلة ما بشكل يبرز الترابط والتفاعل بين مختلف مكوناتها". (جبران، 1992).

وجاء كذلك في معجم (المغني) بأنّ "المقاربة" تعني: "كيفية معالجة الموضوع؛ أيّ عالج المشكلة، وتناولها بالتحليل والنظر والدراسة بمقاربة منطقية." (أبو العزم، 2011) ومن هنا يمكن القول: إنّ بعض الدلالات اللغويّة لمفردة (مقاربة) تتماشى ومفهومها في البحث. وفيها تركيز على أبعاد مهمّة في تعريف "المقاربة"، منها: أنّها طريقة أو منهجيّة للتعامل مع قضية ما، وأنّها كذلك تعبّر عن تدبير واستعمال يكون فيه انسجام وتناسق وتفاعل بين أجزائه ومكوناته. والمقاربة في هذه الدلالة اللغويّة الأولى تركز على النظر والتحليل المتكامل، والتفسير المنظم لموضوع أو مسألة ما؛ من أجل التعرّف على جوانبها وأوجهها المتعددة.

وعلى مستوى التعريف الاصطلاحيّ، تتعدّد التعريفات لمصطلح "المقاربة"؛ فمثلاً في المجالات التربوية تعرّف المقاربة على أنّها: "مجموعة التصوّرات والمبادئ والاستراتيجيات التي يتم من خلالها تصوّر منهاج دراسيّ، وتخطيطه، وتقييمه" (وزارة التربية الوطنية، 2013، 11)، وكذلك على أنّها: "تصوّر نظريّ مُكوّن من مجموعة مبادئ يتأسس عليها برنامج دراسيّ معيّن." (اللحية، 2005، 29).

وعلى هذا الأساس يمكن تأكيد أنّ مفهوم "المقاربة" يدور حول الطريقة أو الأسلوب الذي يُتبع في تناول موضوع ما، بالتركيز على تقديم معالجة أو تصوّر أو تحليل أو تفسير منهجي للظاهرة أو المشكلة محلّ الدراسة. ومن ثمّ فإنّ هذا البحث يعتبرها الطريقة المنظمة في تناول موضوع الحضارة بصورة تكاملية، من خلال وضع إطار منهجيّ، ومداخل أساسية مُوجّهة، تساعد على التحليل والفهم والنقد والتقييم والاستفادة منه (برغوث، 2020، 8-9).

وأما بالنسبة لمصطلح "الحضاريّة" فيعني بالنظر الكلية الشمولية لظاهرة الحضارة، وليس فقط إلى بُعد أو مكوّن من مكوناتها. وفي سياق البحث يعني الإطار التحليلي الأشمل الذي يجمع ويكامل بين عناصر متعددة تسمح بالنظر الكلية القيمة الشمولية للمشكلات والظواهر، وتوضح الأبعاد المتداخلة التي تؤثر في تحليل الظواهر والمشكلات. ومن جهة أخرى، يركّز مفهوم "الحضارية" على منظومة القيم التي ينبغي أن تحكم عمليّات التحليل والتفسير للظواهر، وكذلك المقاصد والأهداف التي ينبغي ترسيخها

في التحليل، بالإضافة إلى استدعاء الرؤية البينية المتداخلة بين العلوم والمعارف، واستخدام معطيات علوم متعددة لتحليل ظاهرة اجتماعية معينة (برغوث، 2020، 9).

وبعبارة أكثر دلالة: أن نعالج القضايا في إطار الحضارة بأكملها وليس بُعداً أو منتجاً من منتوجاتها الاجتماعية أو السياسية أو الاقتصادية أو العلمية أو المادية أو الروحية أو العسكرية، إلخ، وهذا الذي عناه مالك بن نبي بقوله: "إذا ما درسنا أوجه النشاط في بلد معيّن، وجب علينا لكي نفهمها أن نردّها إلى إطار حضارة" (ابن نبي، 1986، 35). وبعبارة أخرى: إنّ "المقاربة الحضارية" هي التي تتصوّر المشكلات في إطارها الحضاري الشامل، وتتعامل مع مختلف مستويات التحليل المؤثرة فيها، وتأخذ بعين الاعتبار مختلف الأبعاد "ضمن حدود حضارة معيّنة" (ابن نبي، 1991، أ، 49)؛ ذلك لأنّ "مشكلة كلّ شعب هي في جوهرها مشكلة حضارته، ولا يمكن لشعب أن يفهم أو يحلّ مشكلته ما لم يرتفع بفكرته إلى الأحداث الإنسانية، وما لم يتعمّق في فهم العوامل التي تبني الحضارات أو تهدمها...". (ابن نبي، 1979، 19)

ويقدم المفكر الجزائري الطيب برغوث¹ تصوّراً عميقاً لمفهوم "المقاربة الحضارية"، رابطاً إياها بالسُنن الإلهية من جهة، وبالفاعل الحضاريّ الإنجازيّ الاستراتيجيّ من جهة أخرى، بقوله: "إنّ ميزة المدرسة الحضارية في الفكر الإسلامي تكمن في التركيبة التكامليّة أو البنائيّة المتوازنة للمعرفة التي تفضي إلى استخلاص الأنساق السُننيّة المنتظمة في الظواهر الكونيّة والنفسيّة والاجتماعيّة، وجعل ذلك أساس الموقف المعرفي أو السلوكي أو الاجتماعي. بعد ذلك، انطلاقاً من وعيها بكون الفعل المعرفي أو الفعل السلوكي أو الفعل الاجتماعي هو - باستمرار - كلّ تكامليّ مُركّب، وفق نسق منهجيّ مُعيّن، يتولّى بناء (الدورة الإنجازيّة) للفعل، من بدايتها الذريّة المتناثرة إلى نهايتها التركيبيّة المتلاحمة، التي نراها ونلمسها نحن في نهاية الدورة، كياناً كلياً متكاملًا، ولا نحسّ فيه أثراً مباشراً منظوراً للعناصر الجزئيّة الكثيرة المركّبة له، بعد أن انصهرت في مُركّب معرفيّ أو سلوكيّ أو اجتماعيّ جديد" (برغوث، 2004، 42). وبهذا العمق تصبح المقاربة الحضارية منظومة وعي وتحليل وتفسير وتوجيه للظواهر

¹ أنصح الباحثين والمفكرين المشتغلين بالرؤية الحضارية وبالمنهج الحضاري أن يطلعوا على كتابات الطيب برغوث، صاحب كتاب (نظرية الفعالية الحضارية والثقافة السُننية)، وكتاب (نظرية الصيرورة الاستخلافية) وهما كتابان أسّس فيهما هذا المفكر الكبير رؤية حضارية سُننية لقيام الحضارات وتطورها وسقوطها.

الإنسانية من منظور استراتيجي كُليّ متكامل، مؤسّس على مرجعية قيمية، وعلى نسقٍ معرفيٍّ منهجيٍّ متقدّم.

من هذا التحليل نستنتج بأنّ "المقاربة الحضارية" لها أهميتها في توجيه الباحثين إلى النظرة الكلية الشمولية المتكاملة للظواهر والمشكلات، كما تسمح بالانتقال من النظرة التجزئية للظواهر والمشكلات إلى التحليل الكلي مُتعدّد الأبعاد، والمتداخل بين العلوم والمعارف والخبرات المختلفة. وهذا الانتقال سيكون له تأثير على طريقة تناول المشكلات ومنهجها؛ ولهذا السبب ينبغي أن يكون واضحاً بأنّ تبني المقاربة الحضارية يستدعي استخدام المنهج الحضاري في التحليل، وهذا الذي يقدمه لنا مالك بن نبي في تجربته كما سيتبيّن لاحقاً.

2- تصوّر عامّ للمقاربة الحضارية ومكوّناتها المحورية عند مالك بن نبي

بدأ مالك بن نبي تحليله لمشكلات الحضارة الإسلامية بتوضيح "وحدة التحليل" التي اتخذها أساساً لمعالجة سؤال النهضة والتحضّر، ومن المعلوم لدى المشتغلين بفكره، أنّه وظّف "الحضارة" بوصفها وحدة للدراسة، ومن هذه الوحدة التحليلية استطاع بعبقريته أن يثري الفكر الإسلامي الحضاري المعاصر بأطروحات فكرية تكاد تكون فريدة في دراسة مسائل النهضة والتخلف والتجديد الحضاري من منظور منهجيّ.

ومن هنا ينبغي التأكيد بأنه - ومنذ المنطلق - رفع ابنُ نبي سقفَ التحليل إلى مستوى "المقاربة المنظومية الحضارية" في معالجة سؤال النهضة في العالم الإسلامي؛ بحيث وضع المشكلات على مستوى الحضارة، وليس على أيّ من منتوجاتها الجزئية، مثل: الاقتصاد، أو السياسة، أو الأسرة، أو الاجتماع. ومن ثمّ جاءت أطروحته تجسيدا لعملٍ علميٍّ منهجيٍّ خاضع لإطار نظري ورؤية متكاملة. ثم أتبع هذا الإطار النظري وهذه الرؤية المتكاملة بالمنهج والأدوات التحليلية اللازمة "للدراسة العلمية"، وقدم تطبيقات نموذجية متميزة عن الحضارة الإسلامية والحضارة الغربية، وأعقبها بمقترحات عميقة كانت وستكون ذات أثر، وشأن في نهضة العالم الإسلامي لو أنّنا أدركناها وطبقناها مُبكرًا في مسيرة النهضة والتجديد الحضاري المعاصر. وعليه يؤكد هذا البحث أنّ قوّة فكر مالك بن نبي الأساسية تكمن في

"الرؤية الحضارية" التي طوّرها، وفي "المنهج الحضاري" المتكامل الذي استخدمه، وفي "منظومة الأدوات التحليلية" والمفردات المنهجية التي أبدعها بشكل متميز للغاية.

وعندما بدأ مالك بن نبي يعالج مسألة التخلف والنهضة وجد نفسه أمام حالة ضعف في رؤية تناول هذه المسألة، والمناهج المتبعة من حركات الوعي الإسلامي المعاصرة؛ بما في ذلك الحركة الإصلاحية والتجديدية والتنويرية والإصلاحية، وكذلك الحركة القومية والعلمانية، وسائر الحركات الأيديولوجية التي تناولت سؤال النهضة والتجديد بالتحليل.

قدّم ابن نبي دراسة تحليلية لمختلف هذه التوجّهات وتناولاتها لمسألة التخلف والنهضة في العالم الإسلامي في كتابه (وجهة العالم الإسلامي)، وتوصّل إلى خلاصة أساسية، مفادها أنّ هناك قصوراً في المقاربة أو الرؤية المتبعة في تناول هذه المسألة، ومن ثمّ فإنّ القصور لحقّ كذلك المنهج المستخدم، والأدوات التحليلية الموظّفة، مما أثار سلباً في تطوير الحلول المناسبة لحلّ هذه المشكلات بطريقة علمية، حتى أصبحنا على حدّ تعبيره نعالج الأعراض بدلاً من أصل الداء، وقد بيّن ذلك في كتابيه: (شروط النهضة) و(مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي)، ولم يكتفِ ابن نبي بذلك، بل إنّه بعد أن حلّل المشكلة حاول تقديم العلاج والمقترحات الملائمة لوضع العالم الإسلامي وحاله كما تصوّره في وقته، وفي الأوضاع التي كان يواجهها آنذاك، ونجد بعض هذه الحلول والمقترحات مبنوثةً في كتبه، من مثل: (مشكلة الثقافة)، و(ميلاد مجتمع: شبكة العلاقات الاجتماعية)، و(فكرة كومونولث إسلامي)، و(فكرة الإفريقية الآسيوية)، و(المسلم في عالم الاقتصاد)، وغيرها.

ومن أهمّ ما يميّز فكر مالك بن نبي أنّه - ومنذ انطلاقة - حسّم مسألة الرؤية المرجعية والإطار المنهجي الذي تبناه في دراسة قضايا العالم الإسلامي، وقد ظهر ذلك في كتبه، من مثل: (الظاهرة القرآنية)، و(مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي)، و(شروط النهضة). لقد كان واضحاً تماماً عنده بأنّ الإسلام ورؤيته الكونية الشاملة المتكاملة هي أساس الإطار المرجعي للتحليل، وأنّ العامل الديني جوهرّي في تحليل حركة التاريخ، وميلاد ظاهرة الحضارة وأفولها، وأنّ الرؤية الحضارية ينبغي أن تكون هي أساس مقاربة ظواهر الاجتماع الإنساني المركّبة، وأنّ "الحضارة" ذاتها يجب أن تكون وحدة التحليل الرئيسة، وأنّ الاستفادة من معطيات ومناهج وأدوات العلوم الاجتماعية والإنسانية، والعلوم الرياضية والطبيعية أمرٌ مهمّ في تطوير مقاربة منهجية حضارية لدراسة مشكلات العالم الإسلامي.

ولأنّ مالك بن نبي كان حاسماً على مستوى المرجعيّة والرؤية والمقاربة والمنهج كانت أطروحاته أكثر علميّة ومنهجية من غيره الذين اشتغلوا بشأن النهضة والإصلاح والتجديد في العصر الحديث. ويمكن القول بصورة عامة: إنّ من أكثر المفكرين المسلمين المعاصرين الذين استفادوا ووظّفوا أدوات التحليل الاجتماعي والحضاري الحديثة في دراسة الظاهرة الحضارية بشقيّها: الإسلاميّ، والغربيّ بشكلٍ خاصّ. ومن أبرز ما أبدع فيه مالك بن نبي تطويره لمنظومة تحليلية متكاملة في دراسة ظاهرة النهضة، حيث تضمّنت هذه المنظومة إطاراً نظرياً، ورؤية حضارية، وجملة أدوات تحليلية، وتطبيقات عمليّة، ومقترحات مبتكرة.

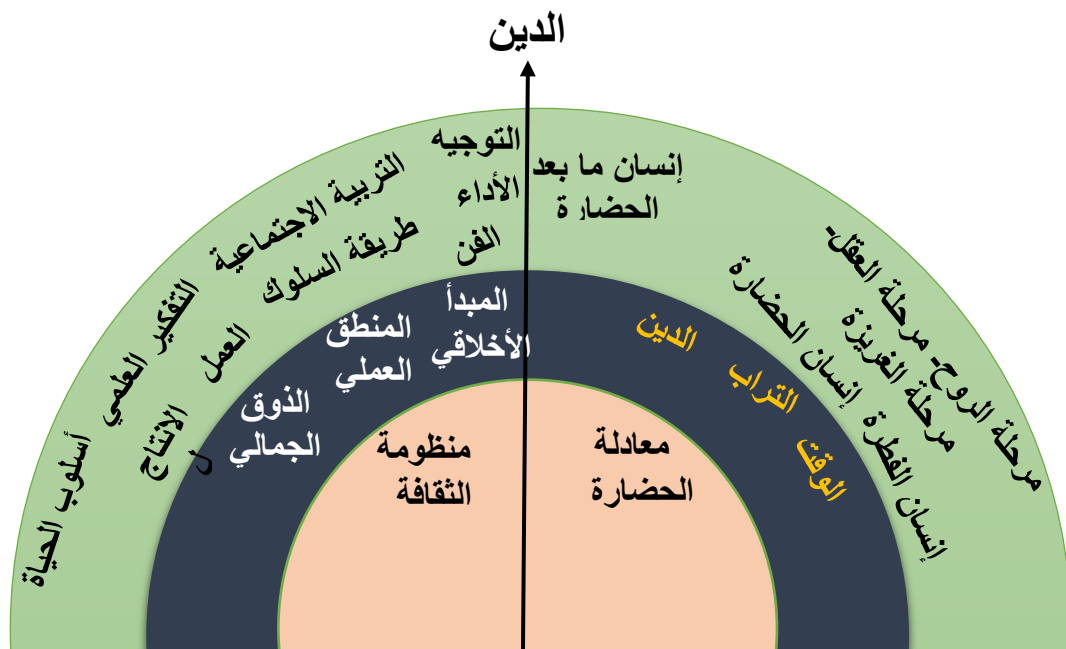
ومن بين الأدوات التحليلية التي تشكّل أساس رؤيته ومنهجه، أذكر هنا: فكرة الدورة الحضارية، والحضارة بوصفها وحدة للتحليل، وفكرة الأطوار الثلاثة للمجتمع: ما قبل الحضارة، والحضارة نفسها، وما بعد الحضارة، وفكرة العوالم الثلاثة للحضارة: عالم الأفكار، وعالم الأشخاص، وعالم الأشياء، وفكرة الأعمار الثلاثة للمجتمع: عمر الفكرة، وعمر الشخص، وعمر الشيء، وشبكة العلاقات الاجتماعية، وفكرة مراحل الحضارة: الروح، والعقل، والغريزة، وفكرة رباعيّة النظام الثقافي: المبدأ الأخلاقي، والذوق الجمالي، والمنطق العمليّ، والصناعة، وفكرة الحضارة العالميّة، وغيرها كثير.

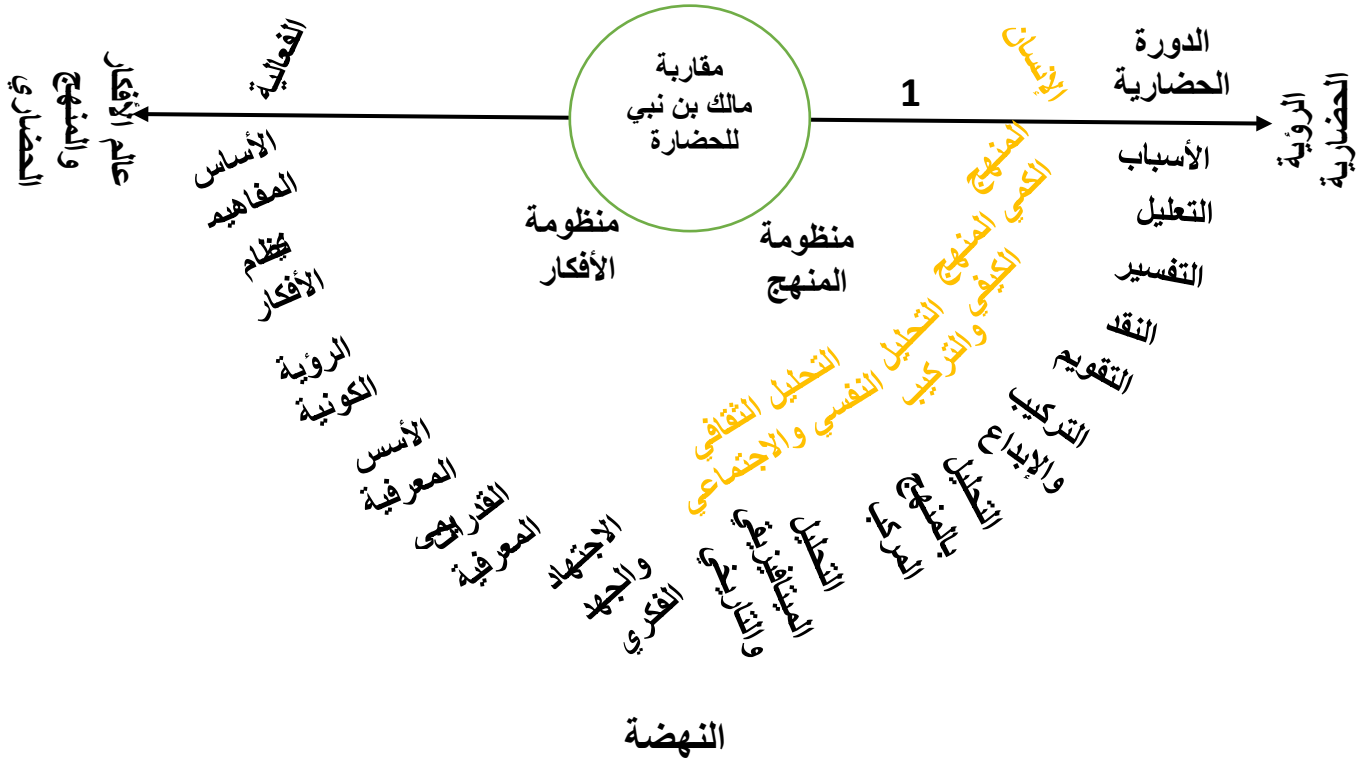
وفي السياق نفسه حينما اعتبر ابن نبي "الحضارة" بوصفها وحدة للتحليل أغنى قاموس التحليل الحضاري الإسلاميّ بجملة مهمة من المصطلحات والمفاهيم والمفردات، مثل: القابلية للاستعمار، والأفكار المطبوعة، والأفكار الموضوعية، والأفكار المنتقمة، والأفكار المخدولة، والحضارة الشيئية، والتكديس، واختلال التوازن، والنهضة، والتخلف، والمجتمع البدائي، والمجتمع الحضاري، والمجتمع التاريخي، والإنسان التاريخي، وسوسيولوجيا التخلف، ومركب الحضارة، والنزعة الذرية، والتربية الاجتماعية، والتوجيه، والاستثمار الاجتماعي، والاستثمار المالي، والزيّ، والذوق، والنزعة الجمالية، ورأس المال الاجتماعي، والتربية الاجتماعية، إلخ.

وبناءً على ما سبق من التحليل يتضح بأنّ جهود ابن نبي في مجال بناء المقاربة الحضارية لمشكلات العالم الإسلاميّ قدّمت لنا ثروة غنية من الأفكار، والتوجيهات، والآراء، والتطبيقات التي يمكن

الاستفادة منها في فهم واقعنا، وتحليل مشكلاتنا، وتقديم الحلول الإبداعية التي تسمح باسترجاع الفعالية الحضارية المطلوبة للتطور والتنمية والتقدم الحضارة والمستقبلي المنشود.

ويعطينا الشكل التوضيحي الآتي تصوراً عاماً لأهم مكونات المقارنة الحضارية، والأدوات المنهجية التي اعتمدها ابن نبي في تحليله لمشكلات العالم الإسلامي، واقتراح بعض الحلول من خلال جهوده وكتابات المعروفة:





الشكل التوضيحي رقم 1: تصور للمقاربة الحضارية عند مالك بن نبي ومكوناتها الرئيسية

بناءً على ما سبق فنحن نتعامل مع ابن نبي المفكر، وليس مجرد المؤلف والكاتب؛ بمعنى: الحديث هنا عن صاحب منظومة أو نظام خاص للتفكير (system builder). وإذا لم نفهم هذه المنظومة، ومفرداتها، وآلياتها، وضوابطها، وتطبيقاتها، فإنه من المرجح ألا نفهم فكره، أو أن نختزله في موضوعات أو قضايا متنوعة ومتعددة قد لا يكون بينها رابط في كثير من الأحيان، ولربما يكون هذا هو أحد أسباب قلة انتشار فكره والاستفادة منه في داخل الدوائر العملية والأكاديمية الرئيسة؛ ذلك لأنّ قصور النظر إلى جهوده بوصفها منظومة متكاملة، بدلاً من النظر إليها باعتبارها موضوعات وقضايا مجزأة، هو العائق أمام فهمه، والاستفادة منه، وتطبيقه ونقده وتطويره. ولهذا يجب أن يعمل المختصون في فكره على طرحه، وعرضه بوصفه منظومة متكاملة مترابطة؛ لكي يتيحوا للباحثين والقراء والمشتغلين بفكره فرصة

الرؤية الكلية الشاملة له، وبدون هذه النظرية المنظوميّة لفكر مالك بن نبي فقد يكون من الصعوبة فهم فكره ونقده وتطويره بما يتناسب والوضع الحالي للعالم الإسلامي.

ثانياً: المقاربة الحضارية وتعدّد مداخل ابن نبي لمفهوم "الحضارة"

يقدم لنا مالك بن نبي تصوّراً متكاملًا للحضارة وأبعادها المختلفة، ويكاد يكون متفرداً في تناوله لهذه الظاهرة في العالم الإسلامي. وربما يرجع السبب في هذا الإثراء والغنى والتعدّد المنهجيّ في دراسته للحضارة إلى تبنّيه للمقاربة الحضارية وللمنهج الحضاري كما سبقت الإشارة.

وفي إطار المقاربة الحضاريّة التي صاغها، يتحوّل موضوع دراسة الحضارة إلى قضية واقعيّة، تهتمّ بالدرجة الأولى تطوّر الوعي، والفكر، والنضج، والذكاء، والعلاقات الإنسانيّة، وتهتمّ كذلك وجود الإنسان، وثقافته، وتاريخه، وحاضره، ومستقبله، وصورته. فعنده يُطرح مفهوم الحضارة على مستويات، وفي دوائر متكاملة ومتنوّعة منها:

- دائرة النظر إلى الحضارة وحدة للتّحليل التاريخي والحضاري.
- دائرة النظر إلى الحضارة منظوراً لدراسة مشكلات المجتمع الإسلامي خاصة، والمجتمع الإنساني عامة.
- دائرة النظر إلى الحضارة مشروعاً للتّغيير والتّجديد الحضاري.
- دائرة النظر إلى الحضارة قدرة ووعياً وإمكاناً للفعل المنظمّ.
- دائرة النظر إلى الحضارة فعلاً إنسانياً، تتوازن به القوى المادية، والمعنوية لجماعة إنسانية معينة، وتحقق بذلك الشروط والضمانات المعنويّة والماديّة لأفرادها؛ كي يحققوا وجودهم مجتمعاً متحضراً.
- دائرة النظر إلى الحضارة معالجة لمشكلات القابليّة للاستعمار، ومشكلات الإنسان والمجتمع، ومشكلات المنهج والفعل، ومشكلات السياسة والأخلاق، ومشكلات العلم والضمير، ومشكلات الأصالة والفاعليّة، ومشكلات التراث والمعاصرة، ومشكلات الاقتصاد والحركة الاجتماعيّة، ومشكلات القوّة والبقاء... ولكي نفهم هذه الصياغة الشموليّة لقضيّة الحضارة عند ابن نبي ينبغي لنا أن نعرض أفكاره، ونحلل جملة المفردات والمفاهيم التي طوّرها للتعامل معها.

والجدير بالذكر أنّ ابن نبي لم يضع تعريفاً واحداً للحضارة، ولكنّه نظر إليها من زوايا مختلفة، وناقشها في مضامين وسياقات متنوّعة ومتعدّدة. وهذا في حدّ ذاته نوعٌ من الحيوية التحليلية للمسائل والإشكالات المرتبطة بقضية الحضارة. وعلى الرغم من هذا التعدد في تعريفات الحضارة إلا أنه يمكن التمييز بين: التعريفات العامّة، والتعريفات التحليليّة، والتعريفات الإجرائيّة الوظيفيّة. ولغرض التحليل والبيان سنحاول إيراد بعض التعريفات التي قدّمها ابن نبي للحضارة.

1- الحضارة: مرض الاستيراد والتكديس ومنطق البناء والهندسة الاجتماعيّة

من التعريفات العامّة التي أوردها للحضارة قوله: "إنّ الحضارة لا تصنعها كومة من الأشياء المستوردة، وإنما هي بناء تطبعه فكرة معينة" (ابن نبي، 1991 ب، 117). ففي هذا التحديد للحضارة يشير إلى ذلك الاتجاه الفكري والعقلي الذي ينحو منحىً تكديسيّاً في فهمه للحضارة؛ فبالنسبة إلى هذه النزعة الاستيراديّة، يرى بعض الباحثين أنّه من الممكن تشكيل حضارة من خلال استيراد الأشياء، والوسائل، والتقنيات، والتكنولوجيات من البلدان، والمجتمعات المتقدّمة؛ ظناً منهم أنّ هذا الفعل التكديسيّ سينتهي إلى بناء حضارة، كما يركز كذلك أصحاب هذه النزعة على اعتبار الحضارة كومة من الأشياء المادية، وكأنّ الحضارة عبارة عن جسد بلا روح، وأداة بلا معنى.

ويردّ ابن نبي هذا الزعم، ويتحدّث عن الحضارة على أنّها بناء وتشكيل أصيل في ذات الفرد، وفي عمق المجتمع، وأنّ هذا البناء يعبر عن عمقٍ فكريٍّ مُستندٍ على فكرة أو رؤية حضارية عميقة. والحضارة فكرة تطبع مضمونها ودلالاتها في الوعي والسلوك، وفي كامل البناء الاجتماعي، وهي ليست مجرد تكديس، أو مجرد أشياء ماديّة، وهي ليست بالضرورة نقل لمنتجات مجتمعات أخرى، ولكنّها في عمقها هندسة، وتشكيل، وبناء متناسق للوعي، والفكر، والسلوك، والعلاقات الاجتماعيّة، والنظم الحضاريّة؛ "إذ ليست الحضارة تكديساً للمنتجات، بل هي بناء وهندسة". (ابن نبي، 1986، 69)

والحضارة ليست مجرد تلفيق للأشياء، وتجميع لها، كما أنّها ليست بتزويقٍ خارجيٍّ يُحسّن مظهرها وصورتها الخارجية، وليست الحضارة كذلك مجرد أشتات من المنتجات والأعمال المبعثرة هنا وهناك، بل إنّ الحضارة بناء وتنظيم كامل متكامل، ينظّم المجتمع وكُلّ أفكاره، فيقوم هذا البناء بتوجيه الأفكار والأشياء والأشخاص، وكامل طاقات المجتمع بحيث يسلكها في عمل منهجي منظم يتحرك بصورة

متناغمة ومتناسقة لتحقيق غايات وأهداف سامية، ترفع وعي الفرد، وتنسق حركة المجتمع؛ ففتح لهما فرصة أداء دور تاريخي يثري مسيرة هذا المجتمع، ويسهم في إثراء مسيرة الحضارة الإنسانية في عمومها. وبهذا المعنى فالحضارة فعل تاريخي، وعمل عميق، يصبُّ في تنظيم الطاقات الفاعلة للفرد والمجتمع وتوجيهها، ويصوغها في صورة بناء وفعل تاريخي يسمح بصناعة التاريخ، وتشكيل الاجتماع الإنساني المتحضّر. " إنَّ الحضارة ليست أشياء مبعثرة ملفقة، ولا مظاهر خلافة، وليست الشيء الوحيد، بل هي جوهر ينتظم جميع أشتائها وأفكارها وروحها ومظاهرها، وقطب يتجه نحوه تاريخ الإنسانية". (ابن نبي، 1979، 159) وعليه فالحضارة إذن جوهر ومعنى وقيمة، تنتظم وعي الإنسان وحياته، وتقودها باتجاه صناعة التاريخ.

2- الحضارة: إرادة صناعة التاريخ والقدرة عليها وإعادة تركيب المجتمع

عندما يتحدّث ابن نبي عن الحضارة فإنّه لا يقصد بها أيّ تجمّع إنسانيّ، أو أيّ نمط أو نسق من أنساق الحياة، بل يعدّها شكلاً نوعياً من الحياة والسلوك والفعل والأداء والتفاعل مع الواقع والمشكلات؛ فليس كل مجتمع إنسانيّ يتمتّع بوضع الحضارة، ويعيش حالة تحضّر، لكنّ الحضارة نوع من التجمّع والتنسيق والتنظيم للوعي والسلوك والفعل بصورة فاعلة ومتناغمة، تؤدّي إلى تحريك الطاقات الاجتماعيّة، وتفعيل الإمكانيات البشريّة والفكريّة والماديّة بصورة تولّد منها أفعال منتجة ومؤثرة تسهم في إنتاج الأفكار، وتغيير الشخصيات، وتطوير الوسائل والتقنيات اللازمة لتحضّر المجتمع.

والحضارة بهذا المعنى النوعي ليست تكديساً، ولا تليفياً، ولا تزويراً، ولكنها رغبة، وقدرة، وإرادة، وفعل متماسك ومتوازن، يأتي نتاجاً طبيعياً لبناء الإنسان، وتسخير التراب، وتفعيل الوقت. فخلق المركّب اللازم لبناء التفاعل الضروري بين الإنسان والتراب والوقت في محصلته يعطينا مفهوماً أولياً لمعنى الحضارة واقعاً اجتماعياً يهدف إلى تحضير الإنسان، ومواجهة ظروف بناء حياة متوازنة ومتطورة، يقول ابن نبي: "الحضارة ليست كلّ شكل من أشكال التنظيم للحياة البشريّة، في أيّ مجتمع كان، لكنّها شكل نوعي خاص بالمجتمعات النامية، بحيث يجد هذا الشكل نوعيته في استعداد هذه المجتمعات لأداء وظيفة معينة ليس المجتمع المتخلف في حالة تكيف معها، لا من حيث رغبته، ولا من حيث قدرته، وبعبارة أخرى: لا من حيث أفكاره، ولا من حيث وسائله. وأنّ هذه الرغبة وهذه القدرة لدى المجتمع المتحضّر ناتجتان ليس

عن تكديس منتجات الحضارة، ولكن عن تركيب أصيل لعناصر: الإنسان، والتراب، والوقت" (ابن نبي، 1986، 67).

وإذا كانت الحضارة هي الواقع الحيوي الذي يخلق الرغبة والقدرة، ويولد الأفكار والوسائل اللازمة للتطور والتقدم، فإنّ هذا المعنى للحضارة متصل بتعليم الإنسان، وتأهيله الشامل المتكامل لوظيفة اجتماعية حضارية، باعتباره عضواً في جماعة بشرية معنوية. وصياغة الشخصية البشرية صياغة تسمح لها بالعيش في مجتمع، وتأهيل الإنسان عموماً لبيئته وعلاقاته، وصلاته الاجتماعية المتوازنة والسوية مع أفراد المجتمع هو في جوهره تأهيل لهذا الإنسان، وتحضير له بالكيفية التي تجعله عضواً فاعلاً في مجتمع معين. وعندما يدمج الفرد في شبكة علاقات اجتماعية، ويتحوّل إلى فرد داخل نظام اجتماعي، فإنّه يتحوّل إلى قوّة وإمكان حيويّ داخل هذا المجتمع؛ بحيث تُكَيّف سلوكيّاته، وأفكاره، ومواقفه بالصورة التي تتماشى فيها مع النظام الاجتماعي. وبهذه الصورة يصبح هذا الفرد جزءاً لا يتجزأ من هذا المجتمع، وبهذه الصورة كذلك تصبّ طاقات الفرد، وتنظم إمكاناته لتصبح بدورها إمكاناً حيويّاً.

وبهذا المعنى تصبح الحضارة في عمقها: أن يتعلّم الفرد كيف يعيش في جماعة، وكيف يشكل جملة صلته الاجتماعية مع المجتمع الذي يعيش فيه، بحيث تنظّم حياته بصورة تتيح له فرصة أداء دور تاريخي، ورسالة حضارية. "إنّ المعنى الأوليّ للتحضّر: أن يتعلّم الإنسان كيف يعيش في جماعة، ويدرك في الوقت ذاته الأهمية الرئيسية لشبكة العلاقات الاجتماعية في تنظيم الحياة الإنسانية من أجل وظيفتها التاريخية" (ابن نبي، 1977، 88). وعندما يدرك الفرد أهميّة شبكة العلاقات، ودورها في صناعة التاريخ وبناء الحضارة يصبح هذا الفرد مُدركاً للمعنى العميق للتحضّر.

وبهذا المعنى تصبح الحضارة مسألة صميمة في البناء الاجتماعي كله؛ لأنّها تتّصل بجوهر المجتمع، ألا وهو شبكة العلاقات الاجتماعية (ابن نبي، 1977، 88 وما بعدها) التي تؤهّل الأشخاص للقيام بفعل حضاريّ تاريخي. والحضارة بهذا المعنى: بناء وهندسة، وعمل منظّم، وتوجيه مركز للطاقات، كما أنّها مناخ ووظيفة، يقوم بها مجتمع وقر شروط التحضّر، من: رغبة، وإرادة، وقدرة، وأفكار، ووسائل، وتنظيم اجتماعي للطاقات. والحضارة كذلك هدف رئيس، وقطب مركزيّ، تتجه إليه البشرية، وتسعى إلى تحقيقه وتحصيله.

كما أنَّ الحضارة هي الاقتدار الجماعي على أداء وظيفة اجتماعية معينة ذات أبعاد تاريخية. وهي كذلك تعكس لنا في جوهرها قدرة الشخص واستعداده ليتعلم كيف يتعامل مع الآخرين، وكيف يتفاعل معهم، وكيف يشكّل معهم الصّلات الضروريّة للتطوّر والتّقدّم.

ومن ثمّ يمكن القول: إنّ الحضارة لا يمكن أن تكون بأيّ حال من الأحوال شيئاً يُستورد أو يُستنتب في واقع ثم ينقل إلى واقع آخر، وليست بنوع من التّكديس لمنتجات حضارة أخرى، لكنّ الحضارة بالدرجة الأولى - كما أكّد ابنُ نبي في الكثير من أطروحاته وكتبه -: بناء وهندسة وتنظيم، وتخطيط وتوجيه، وفعل منهجيّ، وقدرة وإرادة ورغبة في الفعل، وتعلم وتفاعل، وعلاقات وصّلات.

وما دامت الحضارة بهذا المعنى العميق، وبهذه الأبعاد المتعددة والمتنوعة، فهي تركيب وتشكيل وبناء إنساني مفتقر في وجوده إلى الفعل والجهد البشري المرّكز والمنظّم. ومن ثمّ فلنكون نبني حضارة لا بد لنا أن نصوغها في صورة مشروع، وفي صورة مخططٍ يُبيّن لنا: حقيقة الحضارة، وأهدافها، ووسائلها، وشروطها، وقيمتها، ومناهجها، وأبعادها، والعوامل الأساسية الداخلة في هذا البناء.

3- الحضارة: صناعة الإنسان وتفعيل النظام الثقافي

وفي سياقٍ آخر، يضعنا ابن نبي أمام مفهوم للحضارة مُكمّلٍ للأوّل، وموضّحٍ لبعْدٍ آخر من أبعاد دراسة هذا المفهوم. وفي هذا البعد من أبعاد معالجة مفهوم "الحضارة" نجد تركيزاً واضحاً على ربط موضوع الحضارة برؤيته بالإنسان، وبالعوامل البشريّة، وبشكلٍ خاصّ بالمنظومة الثقافيّة؛ إذ إنّ التفكير في مشكلات الإنسان: الاجتماعيّة، والثّقافيّة، والسياسيّة، والاقتصاديّة، والأديبيّة، والماديّة، والفنيّة، إنما هو في جوهره وأصله تفكير في مسألة الحضارة، ومادامت مسألة الإنسان متصلة بالحضارة فهي بالضرورة متّصلة بالثقافة التي يعيش فيها الإنسان، بما في ذلك نمط حياته، وطرائق سلوكه، ومناهج تفاعلاته، وصور علاقاته، وغيرها.

ومن هنا فنحن عندما ندرس مسألة الحضارة، ونحاول تعريفها ينبغي ألاّ تغيب عن أذهاننا هذه الصلة الوثيقة بين الإنسان، والثقافة، وتعريف الحضارة. وبهذا المعنى فإنّ الحضارة ما هي في عمقها إلا تلك الجملة من القيم الثّقافيّة الأخلاقيّة والجماليّة والعملية التي يُجسّدُها المجتمع، ويسلكُ على وفقها الإنسان في مختلف نشاطات حياته. فابن نبي يرى "أنّ كلّ تفكير في مشكلة الإنسان هو تفكير في

مشكلة الحضارة، ولو أردنا محاكاة هذه الجملة بصورة أخرى، مع اعتبار ما بين الحضارة والثقافة من ربط وثيقٍ لقلنا: أيُّ تفكيرٍ في مشكلة الحضارة هو في جوهره تفكيرٍ في مشكلة الثقافة، وبذلك تكون الحضارة في جوهرها عبارة عن مجموع من القيم التَّقافِيَّة المحقَّقة؛ وإذاً فمصير الإنسان رهْنٌ دائماً بثقافته" (ابن نبي، 1984، 100-101). إنَّ هذا التعريف للحضارة يبيِّن لنا بعض الأبعاد المهمة التي ينبغي أن نراعيها ونُحن ندرُسُها، وهي:

- مسألة الحضارة بوصفها مشكلة الإنسان الكبرى: "إنَّ كل تفكيرٍ في مشكلة الإنسان هو تفكيرٍ في مشكلة الحضارة".

- مسألة العوامل التَّقافِيَّة في الحضارة: "الحضارة في جوهرها عبارة عن مجموعة من القيم التَّقافِيَّة".

- مسألة مصير الإنسان مرهون بثقافته: "فمصير الإنسان رهْنٌ دائماً بثقافته".

وإذاً، فإنَّ هذا التعريف يوضِّح لنا الحضارة في صِلتها مع الإنسان من جهة، وفي صِلتها مع الثقافة من جهة أخرى، ومن ثمَّ فدراسة الحضارة ينبغي ألا تُغفل قضية الإنسان، وقضية الثقافة، معاً.

4- الحضارة: الوظيفة الاجتماعية وتوفير الحاجات المادية والمعنوية للجميع

ويأتي ابنُ نبي في سياقٍ آخر بتعريفٍ وظيفيٍّ للحضارة، وذلك عندما يربطها بالمجتمع بأكمله، وبالوظيفة الأساسيَّة لهذا المجتمع، وما ينبغي أن يضطلع به من المهام التي تُصَبُّ في تقديم كلِّ الضمانات، والمساعدات الماديَّة، والأخلاقيَّة، والمعنويَّة، والنفسية التي يحتاجها أفرادُه لكي يعيشوا حياة متوازنة، ويُسهِّموا مساهمة فاعلة في تطوُّرهم الذاتي، وفي تطوُّر مجتمِعهم؛ فالحضارة من "وجهة نظرٍ وظيفيَّة: هي مجموع الشروط الأخلاقيَّة والماديَّة التي تتيح لمجتمع معين أن يُقدِّم لكلِّ فردٍ من أفرادِه، في كلِّ طورٍ من أطوار وجوده، منذ الطفولة إلى الشيخوخة، المساعدة الضروريَّة له في هذا الطوُّر أو ذاك من أطوار نموِّه" (ابن نبي، 1991، أ، 43).

إنَّ هذا التحديد للحضارة يربطها بوظيفتها الواقعيَّة العمليَّة، والحضارة هي هذه القدرة التي يملكها المجتمع ليساعد بها أفرادُه ليحققوا أولاً التوازن والتكامل في ذواتهم، ثم ليحققوا التوازن الاجتماعي المطلوب في حاجاتهم الماديَّة والمعنويَّة، بحيث يحصل التعادل والتوازن في سيرهم ونموِّهم الماديِّ والأخلاقيِّ، فلا تتغلب عوامل معيَّنة على عوامل أخرى؛ بحيث مثلاً يتضخم الجانب المادي في وعي الإنسان وسلوكه

على الجوانب الأخلاقية، أو العكس، أو تلغى كل هذه العوامل تاركة مكانها للفوضى والتبعية والسيّر غير الموجّه، والاتباع للأهواء والإيديولوجيات والاتجاهات المختلفة.

وهنا نجد ابن نبي يُصرّح أنّه "ما كان لحضارة أن تقوم إلا على أساس من التعادل بين الكمّ والكيف، بين الروح والمادة، بين الغاية والسبب، فأينما اختل هذا التعادل، في جانبٍ أو في آخر، كانت السقطة رهيبه قاصمة" (ابن نبي، 1986، 169). ففي هذا التحديد للحضارة، وهو تحديد وظيفي إجرائي، يركّز ابن نبي على المسائل الآتية:

- مسألة العوامل الأخلاقية والمادية.
 - التوازن والتعادل بين الكمّ والكيف، والروح والمادة.
 - مسألة أسبقية المجتمع ودوره الحيوي في مفهوم الحضارة.
 - مسألة الضمانات أو المساعدات الضرورية اللازمة لتطور أفراد المجتمع.
 - مسألة ضرورة استمرارية المجتمع في مدّ المساعدات، وتقديم العون اللازم لأفراده في كلِّ مراحل حياتهم، وليس على وفق الظروف والأهواء.
- ووفقاً لهذا التحديد، تعدُّ الحضارة واقعاً مشروطاً بتوفّر العوامل المعنوية والمادية، وتحقيق التعادل والتوازن بين الكمّ والكيف، والمادة والروح. وهنا يؤدي المجتمع دوراً حاسماً في تحقيق هذا التوازن، وتوفير الضمانات لأفراده، ومن ثمّ يمكن ملاحظة الصّلة التي تقوم بين الحضارة، وبين مفهوم المجتمع، وإذاً، فدراسة الحضارة ينبغي أن تركز على العوامل الأخلاقية والمادية، وكذلك معالجة كيف يتاح للمجتمع توفير الضمانات أو المساعدات التي تحقق التّطوّر لأفراده.

5- الحضارة وأهميّة نظام الأفكار والرؤية الحضارية

وفي سياقٍ آخر، يركّز ابن نبي على بُعدٍ مهمّ للحضارة، وذلك عندما يربطها بالأفكار، ويجعل الأفكار مُكوّناً أساسياً للحضارة، ودافعاً قوياً لها، وموجّهاً لازماً لميلادها ونموها وتطورها في كل أطوارها. والفكرة في الحقيقة سواءً أكانت فكرة دينية، أم مبدأً أخلاقياً، أم شرارة روحية، هي التي تمدُّ الحضارة في ميلادها بالزاد، وهي التي تخرجها إلى حيّز الفعل. وعندما نعرّف الحضارة ينبغي لنا أن نحدّد بدقة موقع الأفكار في ميلادها، وتشكّلها، ووظيفتها. والأفكار تأتي بمثابة الموجّه والمرشد الذي يُحدّد للحضارة نظامها الفكري، وتصوّرها الحياتي، ونماذجها السلوكية، وأنساقها المعرفية والعملية.

وعندما تبدأ الفكرة في عملية توجيه المجموعة الإنسانية للدخول في فعلٍ حضاريٍّ فهي تطبع هذا المجموع البشري بنظامٍ فكريٍّ يصبح بمثابة الصبغة الأساسية، والنموذج الأصلي الذي يتحكم في سلوكيات ومواقف هذا المجتمع في مراحلها اللاحقة.

والحضارة - في الحقيقة - هي النتاج، والمحصلة الفكرية أو الاجتماعية أو التربوية أو العلمية أو السياسية أو الأدبية أو العمرانية لفكرة منظّمة ذات أبعادٍ حضارية وإنسانية. وهذه الفكرة أو النظام الفكريُّ هو في الحقيقة الذي يُعطي للمجتمع كلَّ خصائصه، وصفاته النوعية التي تميّزه عن غيره من المجتمعات والثقافات. في هذا الشأن يؤكّد ابن نبي أنّ "حضارة ما هي نتاجُ فكرةٍ جوهريةٍ تُطبع على المجتمع في مرحلة ما قبل التحضّر التي تدخل بها التاريخ. ويني هذا المجتمع نظامه الفكري طبقاً للنموذج الأصلي لحضارته. إنّه يتجذّر في محيط ثقافي أصلي يحدد سائر خصائصه التي تميّزه عن الثقافات والحضارات الأخرى" (ابن نبي، 1988، 41). في هذا التحديد للحضارة يمكن أن نلاحظ المسائل الآتية:

- مسألة الصّلة بين الحضارة والأفكار.
- مسألة الصّلة بين الحضارة والتاريخ
- مسألة الصّلة بين الحضارة والنموذج الأصلي أو المرجعية الأصلية للمجتمع.
- مسألة الصّلة بين الحضارة والمحيط الثقافي وخصائص المجتمع.
- مسألة الحضارة وأوضاع المجتمع ومرحلة تطوره.

6- الحضارة: معادلة الكيمياء الاجتماعية لتركيب: الإنسان، والتراب، والوقت

يتحدّث ابن نبي كذلك في سياقٍ آخر عن الحضارة من وجهة نظر تركيبية تحليلية في صورة معادلة، وهنا نجدّه يرجع إلى أصول الأشياء، أو إلى الصياغات المبدئية لتشكيل الحضارة، ويرجع بنا إلى العوامل والعناصر الأولية التي تشكّل الأساس الأولي للحضارة، وكأنّه يريد أن يُبيّن لنا المركّب الأساس الذي به نستطيع أن نصِلَ إلى بناء حضارة. ولكي نشكّل حضارة، أو نصِلَ إلى بناء هذا الواقع الذي يسمى حضارة، ينبغي أن نقومَ بتركيبٍ أوليٍّ وجوهريٍّ للعناصر الأولية للحضارة، وهي: الإنسان، والتراب، والوقت، والفكرة الدينية أو المبدأ الأخلاقي أو المفهومية التي تقوم بتركيب هذه العناصر في شكل حضارة؛ يقول ابن نبي: "حضارة = إنسان + تراب + وقت".

وتحت هذا الشكل تشير الصيغة إلى أنّ مشكلة الحضارة تنحلُّ إلى ثلاث مشكلات أولية: مشكلة الإنسان، مشكلة التراب، مشكلة الوقت. ولكي نُقيّم بناء حضارة لا يكون ذلك بأن نُكدِّس المنتجات، وإنما بأن نُحلَّ المشكلات الثلاث من أساسها" (ابن نبي، 1979، 45). فابن نبي، إذاً، يرى أنّ بناء الحضارة الحقيقية لا يتمُّ إلا عن طريق حلِّ هذه المشكلات الأربع: مشكلة الإنسان، ومشكلة التراب، ومشكلة الوقت، ومشكلة المركّب الديني. وبعبارة أخرى: ينبغي حلُّ هذه المشكلات القاعدية، أي "مشاكل البنية القاعدية، أعني مشاكل: الإنسان، والتراب، والزمن. وأتّها هي التي يجب أن تثار قبل غيرها؛ كما يجب أن نوجدَ "القاسم المشترك" لحلّوها؛ وهذا القاسم المشترك إنّما يتمثّل في المفهوميّة التي يجب أن تكون "حلفاً" بين الأشخاص، و"فناً" صياغياً تجاه الأشياء، و"منهجاً" على صعيد الأفكار" (ابن نبي، 1991، أ، 118).

في هذا السياق تظهر لنا شروط الحضارة، والمشكلات الأساسية التي ينبغي أن نتعامل معها إذا أردنا معالجة مشكلات المجتمع. وابن نبي يركّز على مسألة: الإنسان، والتراب، والوقت، والمفهوميّة بوصفها: منظومة، وفناً، ومنهجاً. وفي مكانٍ آخر، نجدُه ينظر إلى الحضارة باعتبارها واقعاً اجتماعياً يُصوّر لنا حقيقة هذه الحضارة عندما تتحوّل إلى واقعٍ وقيمٍ ثقافيةٍ عمليةٍ، تطبع أسلوب حياة الإنسان، ونمط تفكيره، وطرائق سلوكه؛ فالحضارة "هي مجموعة الشروط التي تكون في المكان وفي الزمان حضارة معينة، أي الحضارة التي تطبع جميع حقائقها الثقافيّة، وخصائصها الأخلاقيّة والجماليّة والصناعيّة في أسلوب حياة يشمل المنظر الإنسانيّ، ويحدّد سلوك النموذج الاجتماعيّ الذي يتحرّك فيه. وعليه، فكُلُّ تفكير في مشكلة الإنسان بالنسبة إلى حظّه في الحياة، هو في أساسه تفكير في مشكلة الحضارة" (ابن نبي، 1991، ب، 114). وهنا تركيز على المسائل الآتية:

- الحضارة واقعاً محكوماً بقوانين الزمان والمكان.
 - الحضارة حقيقة ثقافية متجسدة في واقع إنساني.
 - الحضارة وحقيقتها الأخلاقية والجمالية والصناعية.
 - الحضارة وأسلوب حياة المجتمع، ونظرته إلى الأشخاص والأفكار والأشياء.
 - الحضارة نموذجاً للسلوك والفعل والتفاعل مع الواقع والأشخاص.
 - الحضارة تفكير متعمق في مشكلة الإنسان وما يتصل بها من قضايا ومسائل.
- إنَّ نظرة متعمِّقة إلى هذه الجملة من التعاريف، والسياقات المختلفة التي أورد فيها ابنُ نبي قضيَّة الحضارة تُبيِّن لنا عمق فهمه، وشموليَّته، وسعته؛ فليست قضيَّة الحضارة قضية جزئية، أو سطحيَّة، أو ارتجاليَّة، ولكنها بناءً، وتنظيمٌ، وهندسة، وفعلٌ منهجيٌّ مُركِّز.
- ومن هنا نجده في دراسته للمشكلة الإسلاميَّة خصوصاً، وللمشكلة الإنسانيَّة عموماً، يركِّز على الحضارة بوصفها وحدة لتحليل هذه المشكلة؛ فيرفض كل نظرة جزئية إلى مشاكل المجتمع، ويردُّها كلَّها إلى المشكلة الحضاريَّة. والحضارة كوحدة للتحليل ينبغي أن تهيمنَ على مناهج التحليل؛ حتى نتَمكَّن من رؤية المشكلة في شموليَّتها، وتكاملها، وعمقها.

ثالثاً: الحضارة بوصفها وحدة لتحليل مشكلات المجتمع

بعد الاستعراض السَّابق للمفاهيم الديناميكية المتنوّعة للحضارة كما وردت في بعض جهود ابن نبي، من المفيد الآن أن نُعرِّج على تحليل الحضارة وحدة للتحليل الاجتماعي والتاريخي؛ لأنَّ ذلك سيُعين على اكتشاف بعض الأفكار العائمة التي تصلح أن تعدَّ قوانين أساسية في دراسة قضية الحضارة، وبالأحرى في تطوير نظرية إسلامية واضحة في دراسة الحضارة. وكما سبقت الإشارة، فإنَّ الحضارة مسألة مهمة، ومتصلة في الوقت ذاته بالإنسان والثقافة ونظام الأفكار والقيم، وما يرتبط بها من شؤون الاقتصاد، والسياسة، والتربية، والعلوم، والمعارف، والقيم، والأخلاق، والوسائل، والتقنيات المتنوّعة.

1- مفهوم وحدة التحليل وأهميتها في المقاربة الحضاريَّة

المقصودُ بوحدة التحليل - بصورة عامة - ذلك الإطار النظريِّ العامِّ بكل مفرداته، وقواعده، ومبادئه، وضوابطه، ومفاهيمه، ونواظمه، والذي يستخدم من أجل معالجة الإشكالات والتساؤلات التي تطرح في سياق الورقة في قضايا: التَّجديد، والمجتمع، والإنسان، والحضارة، وغيرها.

وكما هو معلوم عند المتخصصين فإنَّ وحدة التحليل الاجتماعي والتاريخي التي استخدمها ابن خلدون (الخطيب، 1993، 43 وما بعدها) - مثلاً - في دراسته لحركة المجتمع والتاريخ والعمران البشري هي "الدولة"¹ بوصفها إطاراً تحليلياً ناقش ضمنه هذا العبقرى² كثيراً من قوانين العمران ومبادئ الاجتماع الإنساني، وسنن الحركة الاجتماعية والتاريخية؛ " فقد رأى ابن خلدون أنّ التاريخ عبارة عن سلسلة من الدول تسير كلُّ منها في حلقات متتابعة، وتتشابه هذه الدول في مراحلها المختلفة، وفي أعمارها، وتقوم الواحدة على أنقاض الأخرى، وهكذا" (خضيري، 1979، 69 وما بعدها). واستطاع ذلك العلامة المسلم أن يدلنا على كثير من قوانين الاجتماع البشري، على الرغم من تركيز إطاره التحليلي، أو وحدته التحليلية المنهجية، على مسألة "الدولة"، كما يرى بعض العلماء، ومنهم مالك بن نبي (خضيري، 1979، 53 وما بعدها) كما سيأتي توضيحه. ثم أتى مفكِّرون ومنظِّرون آخرون، نظروا إلى وحدة التحليل هذه في نطاق أوسع وأشمل من قضية الدولة وإطارها التحليلي، ومفرداتها وأدواتها التحليلية.

وتحدّث - مثلاً - في إطار التصوّر الإسلامي مالك بن نبي - رحمه الله -، وتحدّث توينبي (خضيري، 1979، 48) في سياق التصوّر المسيحي الغربي عن "الحضارة"³ بوصفها وحدة لتحليل التاريخ وحركة المجتمعات، وكإطار أشمل وأوسع لدراسة قوانين العمران وسنن الفعل الحضاري وتطور المجتمعات. وهنا أصبحت الحضارة بمفرداتها، ومفاهيمها، ونظرياتها، وأدواتها، ومناهجها، وأساليبها، ووسائلها، وأسسها إطاراً تحليلياً علمياً منهجياً لدراسة قضايا التاريخ والثقافة والاجتماع والإنسان والعمران والمدنية وغيرها.

ولهذا السبب نجد ابن نبي يردُّ المشكلة الإسلامية في أساسها إلى مشكلة الحضارة، ويقترح علينا أن نتجنّب الرؤية الجزئية في معالجة مشكلات المجتمع المسلم، وألاً نضيّع وقتنا، ونبدّد جهدنا في دراسة الأعراض والمظاهر، متغافلين عن المسألة الحقيقية التي ترتدُّ إليها كلُّ المشكلات الجزئية المتصلة بالسياسة،

¹ يقول ابن خلدون: "إن الدولة - في الغالب - لا تعدو أعمار ثلاثة أجيال، والجيل عمر شخص واحد من العمر المتوسط، فيكون أربعين الذي هو انتهاء النمو والنشوء" (ابن خلدون، د.ت، 121)..

² للاطلاع على رأي ابن خلدون راجع: (الحصري، 1967، 260 وما بعدها؛ واني، 1975)؛ الورد، 1962، 80 وما بعدها؛ أو ميليل، 1980، ص 37 وما بعدها).

³ وقد استخدم كذلك صاموئيل هانتنغتون نموذج الحضارة كوحدة للتحليل، يقول هانتنغتون: "إن نموذج الحضارة هذا يفسر كثيراً من التطوّرات المهمة في الشؤون الدولية في السنوات الأخيرة" (هانتنغتون، 1994، 46-55).

والاقتصاد، والتعليم وغيرها؛ ولهذا فهو يقترح ضرورة إرجاع كلِّ مشكلاتنا إلى إطار الحضارة¹؛ حتى نتمكّن من رؤية أبعاد الأزمة وشموليتها وجوهرها الحقيقي، لا أعراضها وتجلياتها.

ولهذا ينبغي أن تُعدَّ الحضارة² بمثابة الوحدة الأساسيَّة التي ندرس في إطارها مشكلات المجتمع الإسلامي، أو المجتمع الإنساني؛ بمعنى أننا في دراستنا لمشكلات المجتمع ينبغي أن ننظر إليها بصورة شمولية متكاملة غير مجزأة. وفي هذا السياق نرى ابنَ نبي يضع القاعدة الآتية في التعامل مع مشكلات المجتمع وفق المنظور الحضاري: "إنَّ مشكلة كلِّ شعب هي في جوهرها مشكلة حضارته" (ابن نبي، 1979، 19).

ولكي نتعامل بصورة موضوعية مع مشكلة أيِّ مجتمع أو جماعة بشريَّة، ينبغي لنا أن ندرس مشكلات هذه الجماعة بوصفها مشكلة كليَّة متصلة بحضارته؛ فوحدة التحليل التي ينبغي أن نستخدمها في دراسة المشكلات هي الحضارة. أي، علينا ألاَّ نجزئ المشكلة إلى أجزاء متفرقة كأنَّ نقول: إنَّ المشكلة سياسية، أو اقتصادية، أو اجتماعية، أو أخلاقية، أو روحية، أو علمية، أو فكرية، أو منهجية، ولكن أن نقول: إنَّ المشكلة الحضارية تنتظم سائر المشكلات الجزئية التي يمكن أن نتصوَّرها.

ومشكلة كلِّ مجتمع إنسانيّ يعيش في طور ما قبل الحضارة، أو في طور ما بعد الحضارة، هي مشكلة الحضارة - أي كما سبقت الإشارة إليه - مشكلة الإنسان، ومشكلة ثقافته التي لم تصبح قادرة على الممارسة الحضاريَّة، والتفعيل الحضاري. وكلَّ الأعراض والأمراض التي نراها في ميدان السياسة والاقتصاد والأخلاق والتربية والتعليم والاجتماع عموماً، ليس مرَّدها إلى العوامل السياسية أو الاقتصادية فحسب، بل ترجع إلى العوامل الحضاريَّة التي تتضمن كل أنواع المشكلات الجزئية، وأن المشكلة الحضاريَّة في أساسها ترتدُّ إلى الإنسان والثقافة بالمفهوم الشموليِّ الواسع. ولهذا وجدنا ابن نبي يُصرِّح بشكل واضح: "هذه الأمة أصبحت تعاني الأزمات المتنوعة التي قد نجمُها في كلمةٍ واحدة نسميها "الأزمة الحضاريَّة" (ابن نبي، 1978، 46).

¹ قال الأستاذ أحمد محمود صبحي: "فدراسة الحضارات توسع نطاق الدراسة التاريخية لما هو أهم من أخبار المعارك، وسيَّر الملوك، إنها دراسة الفكر الإنساني ممثلاً في شتى مناحي النشاط البشري، ولقد رضي المؤرخون أخيراً أن يجعلوا الحضارات، لا الأفراد، هي موضوع دراستهم واهتمامهم" (صبحي، د.ت، 5-6).

¹ قال أرنولد توينبي: "إنَّ المجتمعات الأعظم اتساعاً في الزمان والمكان من الدول القومية، أو دول المدن المستقلة، أو أية جماعة سياسية أخرى، هي المجالات المعقولة للدراسة التاريخية؛ فالمجتمعات، لا الدُول، هي الوحدات الاجتماعية التي يجب أن يُعنى بها دارسو التاريخ." (الخطيب، 1993، 48).

2- المقاربة الحضارية والزامية بناء الإنسان الحضاري

إنَّ تحليل الأزمة الحضاريَّة وفق المنظور الحضاري¹ معناه: أن نُرجِع كلَّ أزماتنا وأمراضنا الجزئية المنتشرة في كامل الجسد الاجتماعي إلى إطارها الحضاري؛ أي بربطها بالإنسان، وثقافته، سواءً أكان هذا الإنسان رئيساً، أم عالماً، أم اقتصادياً، أم سياسياً، أم رجلَ دين، أم إنساناً عادياً. ومن ثمَّ، فنحن عندما نحاول معالجة مشكلات الأمة المتنوّعة ينبغي ألا نذهب إلى تجلّيات الأزمة ومظاهرها وأعراضها، ولكن ينبغي الرجوع إلى الإنسان نفسه، وإلى ثقافته المتفكّكة المتحلّلة المريضة؛ أي أن نعود إلى دراسة الأزمة الحضاريَّة في عمقها الإنساني والثقافي. وهنا تتجلى أماننا ضرورة إعادة بناء الإنسان الحضاري شرطاً جوهرياً أصيلاً في تجديد الفعاليَّة الحضاريَّة للمجتمع المسلم وحضارته.

وبهذا المعنى ينبغي أن نرتفع بوعينا، وفكرنا، ورؤيتنا، ومناهجنا إلى مستوى إدراك المشكلة في إطارها الحضاري² العام، وليس فقط في أطرها الجزئية. ودراسة مشكلات المجتمع ينبغي أن تُردَّ إلى إطارها الحضاريّ الشَّامل لكلِّ النشاط البشريّ الجزئيّ، ولا يتِمُّ ذلك إلا بالنظر إلى الإنسان في كُله الحضاريّ الذي يتضمَّن أبعاده الروحية والعقدية والنفسيَّة والوجدانيَّة والفكريَّة والعقليَّة والمعرفيَّة والسلوكيَّة والأخلاقيَّة والمعنويَّة والاجتماعيَّة والاقتصاديَّة والماديَّة والسياسيَّة والثقافيَّة، إلخ.

ويوضِّح ابنُ نبي هذا الأمر بقوله: "إذا ما درسنا أوجه النشاط في بلد معين، وجب علينا لكي نفهمها أن نردّها إلى إطار حضارة تستمدُّ منها الحياة أشكالها، ويشكل الفرد دائماً أفكاره وضروب نشاطه على المنوال الذي صنعه القرون والأجيال" (ابن نبي، 1986، 35). ولما كان هذا هو موقع

¹ كتب عبد الحليم عويس: "لم يكد يظهر فقه موضوعي للتاريخ يعتمد على منهجية علمية دقيقة إلا في العصر الحديث عندما بدأ المسلمون يفيقون إلى موقعهم في الحضارة بعد غفلة طالت، ويعتبر العلامة المهندس مالك بن نبي أبرز معلم في هذا المنعطف الجديد الذي يمثل الطريق الصحيح لفقه هذا الركن الأساسي في القرآن الكريم، وهو فقه الحياة والتاريخ على ضوء التصور الإسلامي الصحيح" (عويس، 1986، 12).

² ذكر فهمي جدعان ما مفاده أن مسألة الحضارة شغلت الوعي العربي منذ وقت مبكر، حيث يقول: "إنَّ إشكالية ابن خلدون الحضاريَّة قد مثلت الهاجس الرئيسي عند المفكرين العرب المحدثين، منذ أن اتصل الإسلام بالغرب، فباتت القضية الجوهريَّة هي القضية التي تدور حولها المقدمة: قيام الحضارات وانحيارها، صورة الأمة أو الدولة المثلى التي يمكن لقيامها، تجنب استمرار التقهقر، والخروج من حالة الانحطاط، والتقدم نحو المستقبل بأكثر فعالية" (جدعان، 1985، 125 وما بعدها).

الحضارة، فإنَّ ابن نبي عدّها¹ وحدةً أساسيةً لتحليل مشكلات المجتمع، وخصَّص لها حيزاً كبيراً ضمن اهتماماته وجهوده.

ومن ثمَّ فإنَّ اعتبار الحضارة بوصفها وحدةً لتحليل مشكلات الإنسان والمجتمع يتطلب - أولاً وقبل كل شيءٍ - التعرُّفَ على الأبعاد الشاملة لمسألة الحضارة، أي تلك الصِّلة القائمة بين مفهوم الحضارة، والإنسان، والثقافة، والمجتمع، والمفهومية، والمنهج، والأفكار، وغيرها. وإذا أردنا تحليل مشكلات المجتمع وفق هذه الوحدة التحليلية ينبغي أن نكون قادرين على تطوير منظور تحليلي حضاريّ يساعد على رؤية كلّ المشكلات الجزئية مرتبطة بالإطار الحضاريّ الكليّ.

ومن هنا، تصبح قضايا الثقافة والمجتمع والتربية والسياسة والاقتصاد والفكر والمعرفة غير منفصلة عن بعضها البعض، وغير مجزأة فعلياً، وتصبح صادرة مباشرة عن الإنسان ورؤيته الكونية الشاملة. وثانياً: لا بدّ من تأكيد أنّ مفهوم الحضارة يجعلنا نثير تساؤلات عن نظامها، والقانون الذي تسيّر على منوالها؛ إذ علينا إذا ما أردنا أن نبني حضارة أن نعرف مضمونها، ونظامها، وقانونها الذي تتبعه في ميلادها، وظهورها، وتطورها، وفي أفولها، وتراجعها كذلك.

وهذا المفهوم للحضارة - وحدةً لتحليل مشكلات المجتمع، ونظاماً خاضعاً للسنن والقوانين - يقودنا إلى الحديث عن العناصر المكوّنة للحضارة، بوصفها مشروعاً للتغيير، والبناء، والتوجيه للمجتمع؛ كي يحقق أقصى مستويات الفاعلية والإنتاجية الحضارية. فابن نبي يقول عن الحضارة: "من الوجهة العملية التطبيقية فإنها كمشروع لعمل مخطط تحرك أقصى ما يمكن من الطاقات الاجتماعية لمواجهة أكثر ما يمكن من المشكلات الحيوية المتصلة بواقع النموذج الاجتماعي" (ابن نبي، 1991 ب، 116). فإذا ما أردنا تطويراً للمجتمع المسلم، وتفعيلاً لقدراته وإمكاناته توجَّب علينا الأمرُ أن نواجه مشكلة الحضارة، وذلك بأن نعيد بناء الإنسان وتأهيله ليُدخل في فعلٍ حضاريّ جديدٍ، يجعله في مستوى التَّجديد والتغيير للواقع والثقافة المتخلِّفة (برغوث،).

الخاتمة

¹ "فقيمة الدراسات الحضارية أنها لا تنهج منهج التاريخ في تصوّر الماضي وتفسير الأحداث، وهي تجمع بين العنصر التاريخي والعنصر الفلسفي، وتهتم قبل كل شيء بما بين الاتجاهات الاجتماعية من وجوه التفاعل والارتباط، فلا تُعنى دراسة الحضارة بالتفصيلات أو الجزئيات، وإنما تُعنى بالنظرة الكلية التي تتضح من خلال شخصية المجتمع الحضارية، وملامح النشاط الإنساني في كل اتجاه من اتجاهاته" (الشريف، 1981، 27).

تبيّن لنا من هذا الاستعراض العامّ لمسألة "المقاربة الحضاريّة"، بوصفها أساساً مُهمّاً من أسس المنهج الحضاريّ عند ابن نبي، أنّ تغييرات جذرية ينبغي أن تُخطط، وتُطبق في وعينا وثقافتنا، وطرائق تفكيرنا وأنماط تعايشنا الحضاري، ومناهجنا التربوية والاقتصادية والاجتماعية والعلمية والتقنية. وهذا الأمر سيُمكننا من بناء إنسان وثقافة وحضارة التفاعل والسلام والتعايش والتوازن والرحمة، والنفع الحضاريّ العامّ للبشرية. ويوصي هذا البحث بضرورة تعزيز اهتمام الباحثين والمشتغلين بفكر مالك بن نبي، ولا سيّما بموضوع المقاربة الحضاريّة، وبمسألة وحدة التحليل، وبمسألة "الدراسة المنظومية الحضارية" لفكره؛ حتى نتمكن من تقويمه، والاستفادة منه، وتطويره.

ومن الواضح أنه على الرغم من وجود الكثير من الأعمال والأطروحات في مجال دراسة مشكلات الأمة الإسلامية إلا أنّ الواقع يدلّ على أنّه لا يوجد تطوّر نوعيّ في مناهج التحليل الحضاريّ الإسلاميّ المتقدمة منذ جهود مالك بن نبي المنظوميّة النسقيّة. ومن ثمّ، علينا الاشتغال أكثر على تطوير النماذج والأنساق، والمقاربات التحليليّة التي تستفيد من مقارنته، وتطوّرها، وتجدها، وتتجاوزها، لكنّ على مستوى العمل المنظوميّ والنسقيّ، وتطوير النماذج المركبة لتحليل مشكلات الحضارة الإسلاميّة والإنسانيّة في عصر العالميّة.

وأخيراً، يمكن القول - بكل ثقة -: إنّ فكر مالك بن نبي فكرٌ سُنيّ، والكثير من أطروحاته مازالت صالحة للتطبيق في واقعنا، وخير مثال على ذلك ما أشارت إليه هذه الورقة. والمقاربة الحضاريّة المنظوميّة من أولويّات ما نحتاج إليه الآن في دراسة العالم الإسلامي، ومستقبل حضارته ووجوده. ويبقى الآن أن تنبri المؤسسات العلميّة والجامعات والمراكز المتخصصة للاستفادة من هذا الفكر، والمقاربة، والمنهج الحضاري الرصين، وكذلك أن تعمل الدُول والحكومات على تبني أطروحات هذا المفكر الكبير، وتسهيل تطبيقها؛ خدمة للعالم الإسلامي والإنساني.

قائمة المصادر والمراجع

- ابن خلدون، عبد الرحمن (د.ت). المقدمة، القاهرة: الطبعة البهية بالأزهر.
- ابن نبي، مالك (1977). ميلاد مجتمع: شبكة العلاقات الاجتماعية، دمشق: دار الفكر.
- ابن نبي، مالك (1978). دور المسلم ورسالته في الثلث الأخير من القرن العشرين، دمشق: دار الفكر.
- ابن نبي، مالك (1979). شروط النهضة، ترجمة: عبد الصبور شاهين، وعمر كامل مسقاوي، دمشق: دار الفكر.
- ابن نبي، مالك (1984). مشكلة الثقافة، دمشق: دار الفكر.
- ابن نبي، مالك (1986). وجهة العالم الإسلامي، ترجمة: عبد الصبور شاهين، دمشق: دار الفكر.
- ابن نبي، مالك (1988). مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، ترجمة: عبد الصبور شاهين، دمشق: دار الفكر.
- ابن نبي، مالك (1991 أ). القضايا الكبرى، بيروت: دار الفكر.
- ابن نبي، مالك (1991 ب). تأملات، دمشق: دار الفكر.
- أبو العزم، عبد الغاني (2011). معجم المغني، على الرابط:
<https://shamela.ws/rep.php/book/2236>
- أومليل، علي (1980). "مصادر ابن خلدون في المعرفة والتنظير"، مجلة الحياة الثقافية، العدد 9، تونس.
- برغوث، الطيب (2004). مدخل إلى سنن الصيرورة الاستخلافية - قراءة في سنن التغيير الاجتماعي، الجزائر: دار قرطبة.
- برغوث، عبد العزيز (.....). أساسيات المنهج الحضاري، مدينة النشر: اسم الناشر.
- برغوث، عبد العزيز، وإسماعيل، حسنين (2020). "أهمية المقاربة الحضارية في تفعيل التراث"، مجلة الإسلام في آسيا، العدد 17، رقم 4، ماليزيا: مركز الأبحاث بالجامعة الإسلامية العالمية ماليزيا.
- جبران، مسعود (1992). معجم الرائد، لبنان: دار العلم للملايين.
- جدعان، فهمي (1985). نظرية التراث، عمان: دار الشروق.

الحصري، ساطع (1967). دراسات عن مقدمة ابن خلدون، ط3، القاهرة: مؤسسة الخانجي.

خضيري، زينب محمود (1979). فلسفة التاريخ عند ابن خلدون، القاهرة: دار الثقافة.

الخطيب، سليمان (1993). فلسفة الحضارة عند بن نبي مالك: دراسة في ضوء الواقع المعاصر، بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسات والتوزيع والنشر.

الشريف، أحمد إبراهيم (1981). دراسات في الحضارة الإسلامية، ط2، القاهرة: دار الفكر العربي.

صبحي، أحمد محمود (د.ت.). في فلسفة الحضارة، الإسكندرية: مؤسسة الثقافة.

عويس، عبد الحليم (1986). فقه التاريخ، القاهرة: دار الصحوة.

اللحية، حسين (2005). نهاية المدرسة: الشغل والكفاءات والمعارف، المغرب: مكتبة توبا يدسون.

معجم المعاني الجامع، <https://www.almaany.com/ar/dict/ar-ar/%D9%85%D9%82%D8%A7%D8%B1%D8%A8%D8%A9/>

هانتنتون، صاموئيل (1994). "إن لم تكن الحضارة فماذا يكون: نماذج من عالم ما بعد الحرب الباردة"، شؤون الأوسط، العدد 30، لبنان: مركز الدراسات الإستراتيجية.

وافي، علي عبد الواحد (1975). ابن خلدون، سلسلة أعلام العرب، هيئة الكتاب.

الوردي، علي (1962). منطق ابن خلدون في ضوء حضارته وشخصيته، القاهرة: منشورات جامعة الدول العربية.

وزارة التربية الوطنية (2013). الوثيقة المرافقة لمنهاج اللغة العربية، الجزائر: الديوان الوطني للموضوعات المدرسية.